﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزخرف: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

فِـقْـهُ اتِّـصـالِ الآيـة بما قبلَها يهدي إلى بعض محطّات القصَّة الَّتي سُكِت عنها

لَمّا ذكَر تعالى في الآيةِ السّابقةِ أنَّه أرسَل موسى عليه السلام إلى فرعونَ وملئه بآياتِه الدّالَّة على نبوَّتِه ورسالتِه، وقولَه لهم: إنَّه رسولٌ مِن قِبَل ربِّ العالَمين؛ ذكَر في هذه الآيةِ ما يَطْلُبُه الأقوامُ مِن الأنبياءِ والرُّسُلِ مِن الدَّلائلِ والبراهينِ على صِدقِه وصدقِ ما جاءَ به مِن هُدًى، فجملةُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: مُقدِّمةُ القصَّةِ، وجملةُ: ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: هو أوَّلُ ما يقولُه المُرْسَلُ للمُرْسَلِ إليهم، ثمَّ إنَّهم يطلبونَ منه أن يأتيَ بآيةٍ أو أكثرَ؛ دليلًا على صحَّة قولِه ذاكَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كُـذِّبَ مـوسى، ولـكـن كـانـت عـاقـبـتُـه مـحـمـودة، فكذلك رسولُنا

يقولُ تعالى: فلمّا جاء موسى بآيات اللّه التِّسْعة الدّالَّةِ على ألوهيَّته وعظمته سبحانه ورسالتِه إلى فرعونَ وملئه؛ فاجَؤوه بالضَّحِك منها؛ سخريةً واستهزاءً؛ ليوهِموا أتْباعَهم أنَّ تلكَ الآياتِ سِحْرٌ، وأنَّهُم قادرونَ عليها، فكلَّما جاءهم بآيةٍ مِن عندِ اللّه، فعلوا ذلكَ معَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في: ﴿فَلَمَّا﴾:

نصر الله تعالى رسـلـه بـآيـاتـه ومعجزاته

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾: معناها التَّعقيب والتَّرتيب مِن غير مهلة، أي: إنَّ موسى جاءهم بالبيِّنات عقِب قولِه لهم: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقولِهم له: ائتِ بآية إن كنتَ مِن الصّادقين؛ لأنَّه مُرْسَلٌ بالآياتِ، ويعرفُها، ويعلمُ حقيقتَها، بل

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 51، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 57.

قد دُرِّبَ على بعضِها، وهذه الفاءُ يدلُّ ترتيبُها على ما قبلَها في الظّاهر على تقدير محذوفٍ، وهو أنَّهم طلبوا آيةً أو أكثرَ مِن آيةٍ، قال الزَّمخشريُّ: "ما أجابوه به عندَ قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وهو مطالبتهم إيّاه بإحضار البيِّنة على دَعْواهُ، وإبرازِ الآيةِ"[1].

علَّة التَّعبير بالمجيء مادَّةً وصيغةً:

إتيانُ موسى بالآيات جِدُّ عظيمٍ

لَمّا كانَ إتيانُ الأنبياءِ والرُّسُلِ المُعظَّمينَ مِن قِبَلِ اللّه مَن أُرسِلوا إليهم - بالآياتِ القاهراتِ الشّاهِداتِ بوحدانيَّةِ اللّهِ المُرْسِلِ، وبصدقِ المُرْسَلِ - ذا خطَرٍ عَلِيٍّ وعظيمِ هيبةٍ وشديدِ جلالٍ؛ عبَّر القرآنُ بالمجيءِ الَّذي هو إتيانٌ بصعوبةٍ، ونظْمُ المجيء فعلًا ماضيًا يشيرُ إلى أنَّ فرعونَ وملَأَهُ إنَّما ضَحِكوا مِن الآياتِ مِن بعدِ تمامِ تحقُّقِ عَرْضِها عليهم؛ إذ تمام تحقُّقِ حصولِ المجيء يترتَّبُ عليه ذلكَ، فقد قامت عليهم الحُجَّةُ، وظهرت، وبانت، وقهرت، ثمَّ إنَّهم منها يضحكون.

فائدةُ التَّعبيرِ بالضَّمير (هم):

ما لم يُصرَّح به مِن معالِمِ القِصَّةِ هو مقصودٌ تَبَعًا

أوقع القرآنُ فعلَ المجيء على الضَّميرِ: (هم) مفعولًا به في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وهذا يعني مواجَهةَ موسى لجَمْعِهم، وأنَّهم تجمَّعوا، واتَّحدوا في مواجهتِه، وأسندَ الضَّحِكَ إلى هذا الضَّميرِ مبتدأً في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛ فدلَّ على تجمُّعِهم وتوحُّدِهم في الاستهزاءِ بموسى وبالآياتِ الإلهيَّةِ الَّتي جاءَهُم بها؛ وذلك كلُّه مُؤسَّسٌ على أنَّ هذا الضَّميرَ قد جَمَع فرعونَ وملَأَه في لفظٍ واحدٍ، وهذا كان حالَهُم، فـ: ﴿هُم﴾ يُصَوِّرُ الواقِعَ، قال البقاعيُّ: "﴿إِذَا هُم﴾، أي: بأجمعِهم"[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 14/ 150.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 34.

بلاغةُ التَّعبير بـ: ﴿إِذَا﴾:

فاجؤوا المُجيء بها - مِن غير توقُّفٍ ولا كسلٍ - بالضَّحِك؛ سخريةً واستهزاءً

كلمةُ: ﴿إِذَا﴾ حرفُ مفاجأة، يدلُّ على أنَّ ما بعدَه حصَل مِن غير ترقُّبٍ، فتُفْتَتَحُ به الجملةُ الَّتي يُفاد منها حصولُ حادِثٍ على وجهِ المفاجأة، والأصلُ في جوابِ: (لَمّا) أن يكون جملةً فعليَّةً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [يوسف: 96]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: 77]، وإذا الفجائيَّة هنا جملةٌ اسميَّةٌ؛ سدَّتْ مَسَدَّ الجملة الفعليَّة؛ لأنَّ ما في ﴿إِذَا﴾ مِن معنى المفاجأة يقومُ مقامَ الجملةِ الفعليَّة، والمعنى: فلَمّا جاءهم بآياتنا؛ فاجؤوه بالضَّحِكِ منها، و﴿إِذَا﴾ الفجائيَّةُ تفيدُ معنًى غيرَ مُتوقَّعٍ بالنِّسْبةِ للمعنى الَّذي قبلَها؛ لأنَّ المُتوقَّع الَّذي يترتَّبُ على مجيءِ الآيات هو إمّا الانقيادُ والتَّسْليمُ، أو المراجعةُ والتَّدبُّرُ، مِن أجل استيعابِ الآيات، أمّا المبادرةُ بالاستهزاء؛ فهذه هيَ المفاجأة[1]، وهذه المفاجأةُ مُؤسَّسةٌ على ذاتِ المجيءِ، وعلى خصوصِ التَّعبيرِ بالآيةِ، وخصوصِ الجَمْعِ الَّذي هو الآياتُ، وعلى خصوصِ التَّعبيرِ بضميرِ العظمة: (نا)، وعلى إضافةِ الآياتِ إلى هذا الضَّمير.

نكتةُ تقديم المسند إليه ﴿هُم﴾:

التَّقديمُ يُصوِّرُ كمال المفاجأة والمباغتة

في قولِه تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: قدَّم القرآنُ المسندَ إليه الضَّمير المنفصل: ﴿هُم﴾ على الخبرِ الجملةِ الفعليَّة: ﴿يَضْحَكُونَ﴾؛ لتقوية الحُكْم وتوكيدِه في النَّفْسِ وتحقيقِه فيها، مِن طريقِ إسنادِ الضَّحكِ إلى واو الفاعلينَ تارةً، وإسنادِ جملةِ الضَّحكِ إلى الضَّمير: ﴿هُم﴾ تارةً أخرى، فكأنَّ معنَى الجملة قيلَ مرَّتيْن، ثم عندما يتلقَّى المُتلقِّي المسند إليه؛ يقَع في نفْسِه أنَّ حديثًا ما سيُخْبَرُ به عنه، فيترقَّبُه، فإذا ما تلقّاه؛ تمكَّن في نفْسِه، ورسَخ، ووقَع فيها موقعًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225، وأبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 404 - 405.

حميدًا؛ لأنَّه تلقّاه، وقد انتظَرَه، واشتاق إليه، وتطلَّع له، وهذه الدَّلالةُ للتّقديم تُصوِّرُ حالَ النَّفْسِ المُتلقِّية مضمونَ الكلام، فلَمّا كان مِن شأنها التَّعجُّبُ والاستغرابُ مِن ترتُّبِ الضَّحكِ على مجيء موسى بالآياتِ الإلهيَّةِ الباهرةِ إلى حدِّ الإنكارِ؛ عومِلَت معاملةَ المُنْكِر، فأكَّد القرآنُ الحُكْم لها، وآنَسَها به، وحقَّقَه فيها، وذلك كلُّه مُؤسَّسٌ على تكرار قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾، وعلى المفاجأة في: ﴿إِذَا﴾.

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿مِّنْهَا﴾:

مِثْلُ آياتِ اللهِ لا يُضْحَكُ منها

قولُه تعالى: ﴿مِّنْهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بالفعل في قوله تعالى: ﴿يَضْحَكُونَ﴾؛ والضَّميرُ في قوله: ﴿مِّنْهَا﴾ يعود إلى الآيات، وكان يمكن في النَّظْم أن يُقال: (إذا هم يضحكون منها)؛ ولكِنَّ التَّقديمَ اعتنى بالآيات، واهتمَّ بها، ووجهُ ذلكَ أنَّ في التَّقديم إنكارًا لطيفًا عليهم أن يضحكوا منها؛ لَمّا جاءهم موسى بها، التَّقديمُ يقولُ: أنّى وكيفَ يكونُ منهم ذلك؟ ونتَج عن ذلك توفُّر الانسجامِ الصَّوتيِّ بين هذه الفاصلةِ: ﴿يَضْحَكُونَ﴾ وبينَ ما قبلها وما بعدَها مِن الفواصل.

بلاغةُ الكناية في الآية:

المُكَنَّى عنه قريبُ الفَهْم مُتعدِّدٌ

أخبر القرآنُ عن فرعونَ وملَئِه بأنَّهم يضحكونَ؛ لَمّا جاءَهم موسى بآيات اللّه العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾، وذلك كنايةٌ قريبةٌ عن صفةِ الاستخفافِ بالآياتِ العظيمةِ الباهرة القاهرةِ، والتَّكذيبِ بها، معَ أنَّ إضافتها إلى ضمير العظمة يقتضي الإيمان بها، وتوقيرها وإجلالها، والانقياد لها، والعملَ بمقتضاها، فكان فرعونُ ومَن معه عاشين عن تلك الآيات العظيمةِ صُمًّا عُمْيًا في ضلالٍ مُبينٍ، كما كان قومُك يا محمَّدُ، ومعك برهان نبوَّتك القرآن العظيم، واختار القرآنُ معنى الضَّحِك مكنًّى به؛ لأنَّه شأنُ الكُبَراء المُتْرَفينَ في باب السُّخْرية والاستهزاء، ولَمّا كانت القرينة في أسلوب الكناية غير مانعة مِن إرادة المعنى الحقيقيِّ

المُكنَّى به، فقد يكونُ حاصلًا في الواقع، وقد لا يكونُ حاصِلًا فيه: لا يتعيَّنُ أن يكونَ كلُّ الحاضرين صدر منهم ضحكٌ، ولا أنَّ ذلك وقَع عند رؤيةِ آيةٍ؛ إذ لعلَّ بعضَها لا يقتضي الضَّحِكَ[1].

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿يَضْحَكُونَ﴾:

الإسراف في الكفر والاستهزاء والإيذاء مِن سمت قوم رسولنا وفرعون وملئه

نظَم القرآنُ معنَى الضَّحِك الَّذي هو كنايةٌ عن الطَّنْزِ بالآياتِ وموسى، والتَّكذيبِ بهما فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛ للدَّلالة على إبلاغِهم في السُّخْرية بالآيات وموسى، والاستهزاءِ بهم، وهذا في حدِّ ذاتِه إسرافٌ في رفض الآيات وموسى، وجحودِهما، والتَّكذيبِ بهما، كما أَسْرَفَ قومُ رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ في الكفر، على ما ورَد في مطلع السّورة: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف: 5]، وفهِم الشَّيخ أبو موسى أنَّ المضارع هنا واقع موقِعَ الماضي؛ لأنَّ الحدث قد وقَع، وهذا المضارعُ يستحضرُ الصّورة، وكأنَّك تراهم، وتسمعُهم، ووراء ذلك تأكيدُ هذا الموقفِ العجيبِ المُسْتَهْتِرِ والمُسْتَهْزِئ بالآياتِ في النَّفْسِ، وهذا لُبُّ المقصودِ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

(2) أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 405.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"